غنية جدًا.. فقيرة قارتنا الأفريقية!

عوني عز الدين

●● من الحقائق الثابتة أن أفريقيا قارة غنية جدا.. غنية بثرواتها الطبيعية، وطاقاتها البشرية.. وهي بنفس القدر، غنية جدا بمشاكلها وتعقيداتها وتناقضاتها.. ولذلك شخص دكاترة الجغرافيا السياسية حالتها بأنها قارة مريضة جدا.. سياسيا!

ولأن أفريقيا قارة غنية جدا.. ولأنها أيضا مريضة جدا، فقد كانت ومستكون مطمعا للقوى العظمى، ولذلك أيضا ستكون فرص النزاع والصراع بين دولها كبيرة وفرص التدخل الدولي في شئونها أكبر.. وفرص تصفية الحسابات الدولية على أرضها أكبر وأكبر.. ولهذا فالوفاق بين القوتين العظميين له تطبيقات في أفريقيا.. ولهذا أيضا ظهر اليوم محور: موسكو - هافانا - أديس أبابا، بصلاحية الخوقة الشيوعية في لواندا عاصمة أنجولا!!

ماهي مشاكل القارة الأفريقية السياسية؟ وما هي طبيعة الأمراض التي تعاني منها سياسيا؟. وكيف تنظر القوتان العظميان إلى مشاكل أفريقيا؟. وما هو هدف موسكو من تشكيل محور: موسكو - هافانا - أديس أبابا - لواندا؟..

مع اجتماعات مؤتمر القمة الأفريقي في جابون، نقدم هذا الملف، لنجيب عن هذه الأسئلة وغيرها.. لمستقبل أفريقيا.. والوحدة الأفريقية، ومشاكل أفريقيا، هو الطبق الرئيسي دائما على موائد مؤتمرات القمة الأفريقية!

مع انفجار الثورة الصناعية في أوروبا، تفتحت عيون دول أوروبا على ثروة أفريقيا، وأهميتها كمورد للمواد الخام وكسوق للسلع الصناعية الرائدة من أوروبا.. وخلال عشر سنوات فقط من عام ١٨٨٥ إلى عام ١٨٩٥ تم تقسيم القارة الأفريقية بين دول أوروبا، ووقع رؤساء القبائل في هذه القارة على معاهدات مع الأوربيين دون أن يعرفوا من نصوصها شيئا.. ولم يتبينوا إلا بعد فترة طويلة أن هذه المعاهدات إنما تسلبهم حرية شعوبهم وثروات أرضهم. بل إن الأوربيين أنفسهم لم يكونوا عند توقيع هذه المعاهدات على دراية بالأرض المستولى عليها، فكانوا يكتفون بتقسيم هذه الأرض فيما بينهم تقسيما نظريا، فيجعلون حدودها خطوط الطول والعرض، إلى أن تبينوا فيما بعد المعالم الجغرافية الأرضية لهذه الحدود!

وهكذا لم يكن للقارة الأفريقية صديق، بل إن الأعداء كانوا يتصادقون دائما على حسابها، ويظهر هذا بوضوح من الاتفاق الودي بين انجلترا وفرنسا عام ١٩٠٤، واتفاقات إيطاليا مع الدول الأوربية الأخرى عام ١٩١١، ثم الاتفاق المعروف باسم اتفاق (هور - لافال) عام ١٩٣٥، أو الاتفاق الإنجليزي الفرنسي على تقسيم الحبشة.. لقد كانت أفريقيا بالنسبة لدول أوربا، هي الأمل الباقي لهم لاستمرار رخائهم بعد أن فقدوا آسيا والأمريكتين.

فالنظم الديمقراطية في أوربا الغربية ثمرة من ثمار الثروة التي جمعت من جهات منها أفريقيا. ولم تنشأ الماركسية ولا النازية إلا عند المحرومين من ثورات ما وراء البحار.. ولذلك فالنظرية الأوربية تقول إن ضياع أفريقيا من يدهم معناه أن تقع البقية الباقية من دولها الديمقراطية فريسة لمذاهب شبيهة بالماركسية أو النازية أو الفاشية!!

قارة مريضة.. كيف؟

●● ولعل السؤال الذي يتبادر إلى الذهن الآن هو:

ماذا يقصد أساتذة الجغرافيا السياسية بعبارة أن قارة أفريقيا قارة مريضة سياسيا؟.. وكيف أصيبت هذه القارة بهذه الأمراض؟.. وما هي أغراض هذا المرض السياسي؟.. وهل من الممكن شفاء هذه الأمراض؟.. وكيف؟..

من المؤكد طبقا لنظريات الجغرافيا السياسية أن الأسباب الرئيسية للأمراض التي تعاني منها القارة الأفريقية تكمن في تلك التقسيمات الفلكية التي وضعها الأوربيون، لتقسيم القارة فيما بينهم، على أساس واحد هو مصالح كل منهم موزعة على خطوط الطول والعرض، دون الاهتمام بالعالم الجغرافية الأرضية، والعوامل السكانية البشرية لهذه الحدود.

أما أعراض هذا المرض السياسي، فهي كثيرة ومتعددة من أبرزها:

● كثرة وحداتها السياسية..

● كثرة ما بين هذه الوحدات وبين بعضها من مشاكل حدود، ومشاكل سكان، وما قد ينجم عن هذا من احتمالات وقوع صدام مسلح بين الجيران، وهو صدام من شأنه إضعاف القارة عموما في المجالات السياسية الدولية.

■ ومن الأمراض السياسية بالقارة كذلك أن ١٣ وحدة سياسية، في هذه القارة لا تستطيع الوصول إلى الساحل، إلا بعد اجتياز الحدود السياسية لدول أخرى. وهذه صورة سياسية لا مثيل لها في قارات العالم الأخرى. فالوحدات السياسية، التي ليس لها سواحل في العالم كله ٢٤ وحدة، منها ١٣ وحدة في أفريقيا وحدها و٤ في أوروبا و٥ في آسيا و٢ في أمريكا اللاتينية.

أما طريقة تخطيط الحدود السياسية في أفريقيا، فهي أحد الأمراض التي تعاني منها القارة، فطريقة تخطيط الحدود في معظم الحالات، لا تراعي الروابط القبلية ولا المصالح الاقتصادية، ولا القواعد الجغرافية العامة في تخطيط الحدود. وذلك لأن الذين خططوا هذه الحدود وهم الأوربيون، خططوها لصالحهم في وقت الاستعمار. وبديهي أن الظروف تغيرت مع الاستقلال، وأن من واجب الدول الأفريقية، أن تخففه بالوعي السياسي من عيوب هذا التخطيط، الذي وضع رغم أنفها، ورغم رفض الحقائق الأرضية له!!..

أين؟.. أين؟

أما قضايا النزاع على الحدود بين الدول الأفريقية، فهي قضايا كثيرة

عمر بونجو رئيس جمهورية الجابون والسيد حسنى مبارك

متنوعة، وهى نتيجة منطقية لأسلوب التقسيم الفلكى، الذى اتبعته القوى الاستعمارية، فى توزيع الغنيمة الأفريقية فيما بينها. ويظهر هذا الشكل من أشكال النزاع بوضوح شديد فى:

● النزاع المغربى - الجزائرى..

● النزاع الصومالى - الأثيوبى - الكينى..

أما النزاع المغربى - الجزائرى فهو حول منطقة الصحراء، ومنطقتى (تندوف) و(كولوب بشار) وهى من المناطق الغنية بالموارد الطبيعية، وبخاصة مناجم الحديد.. ويرجع النزاع على الحدود بين البلدين تاريخيا، إلى عهود الاستعمار الفرنسى فى الشمال الأفريقى، وترجع بعض الحجج التاريخية التى تستند إليها المطالب المغربية إلى عام ١٨٤٥ حيث وقعت معاهدة (لالا مارنيا) بين المغرب وفرنسا، التى كانت السلطة الاستعمارية المهيمنة منذ عام ١٨٣٠ سياسيا وإداريا وعسكريا على الإقليم الجزائرى.. وقد نصت المعاهدة على تعيين تفصيلى للحدود الإقليمية السياسية بين الجزائر والمغرب، ابتداء من سواحل البحر المتوسط حتى المنطقة المسماة (ثنية الساسى). كذلك حددت أسماء القبائل التابعة لكل من البلدين، وفيما يتعلق بمنطقة الصحراء المشتركة بين البلدين، فلقد اقتصرت المعاهدة على الإشارة إلى ممارسة سلطات البلدين لاختصاصات السيادة، كل على رعاياه فى الصحراء لأنه: «بحكم واقعة خلو ذلك الإقليم الصحراوى من السكان، فإن أية محاولة لوضع حدود ستكون عديمة الجدوى»!

وعلى الرغم من أن المغرب قد استرجعت مؤخرا إقليم الصحراء الغربية، وعلى الرغم من أن الخلاف بين البلدين على منطقتى (تندوف) و(كولوب بشار) قد ذاب، وأن الهدوء يسود الموقف إلا أن عوامل النزاع كامنة، واحتمالات تجدده بين وقت وآخر قائمة.

● وهناك أيضا النزاع الصومالى - الأثيوبى - الكينى، وان كانت قضية الحدود الصومالية تختلف اختلافا بينا عن أى نزاع أفريقى آخر حول الحدود القائمة. فالحكومة الصومالية تطالب بإعادة النظر فى جميع مناطق حدود الدولة الصومالية. وذلك طموحا منها إلى ضم جزء من منطقة (جيبوتى) فى ساحل (عفار وعيسى) - الصومال الفرنسى سابقا - وكذلك منطقة الإقليم الشمالى الشرقى فى كينيا..

وتتركز المطالب الإقليمية الصومالية على اعتبارات قومية وعنصرية وثقافية بالمعنى الواسع، وتتمثل كلها فى القبائل الصومالية المنتشرة فى أنحاء تلك الدول المجاورة للصومال. ولا شك أن هذا الخلاف يمكن أن يتفاقم، خاصة إذا دست العناصر الخارجية أنفها فى المنطقة.

أريتريا.. والاستقلال

أما اريتريا: فهى أكثر مشاكل أفريقيا تفجرا فى الوقت الراهن، بعد أن دست موسكو أنفها وألقت بثقلها إلى جانب حكومة اثيوبيا العسكرية الحمراء، بهدف سحق ثوار أريتريا والقضاء على نزعات الإقليم الاستقلالية..

هذه فقط عينة من المشاكل والأمراض التى تعانى منها القارة الأفريقية، إلى جانب مشاكل التفرقة العنصرية فى جنوب أفريقيا وروديسيا، وعشرات أخرى من المشاكل، التى يمكن أن تحل فقط بإرادة أفريقية موحدة.

● الملك الحسن

ترتفع فوق جميع الاعتبارات الإقليمية..

وإلى جانب هذه الأمراض والمشاكل هناك أيضا مجموعة من المتناقضات، يحددها أساتذة الجغرافيا السياسية الغربيون، بأربعة تناقضات أساسية هى:

● التناقض بين أفريقيا البيضاء وأفريقيا السوداء.

● التناقض بين أفريقيا العربية وأفريقيا غير العربية..

● التناقض بين أفريقيا الثورية وأفريقيا غير الثورية..

● التناقض بين القارة الأفريقية والإقليمية الأفريقية..

أبيض.. وأسود

فالتفرقة بين أفريقيا الكائنة شمال الصحراء، وأفريقيا الكائنة جنوبها، بين أفريقيا البيضاء، وأفريقيا السوداء، تفرقة يصطنعها الاستعمار الغربى، وتبدو فى كل الدراسات الأفريقية التى تصدر فى الغرب، وتشبه إلى حد بعيد جهد الاستعمار للتفرقة بين المشرق العربى والمغرب العربى. وهذه التفرقة العنصرية ترجع فى الحقيقة إلى ثلاثة أمور:

أولا:

تجارة الرقيق التى كانت سائدة فى القرنين ١٦ و١٧ فى افريقيا وكانت مقصورة فى أفريقيا على السود دون البيض..

ثانيا:

أن الاستعمار الغربى كان من مصلحته تقسيم القارة إلى أجزاء متنافرة متباعدة.

ثالثا:

سيطرة فكرة التفرقة العنصرية على العقلية الأنجلوسكسونية خاصة، والفكر الغربى عامة لاعتقادها أنها ما دامت قائمة فى مجتمعها، فلا يتصور أن مجتمعا لا تقوم فيه تفرقة عنصرية.

ويرى النقاد أن التناقض بين أفريقيا الثورية (مجموعة الدار البيضاء) وأفريقيا المعتدلة (مجموعة مدروفيا) يظهر بوضوح فى ميدانى السياسة الداخلية والخارجية.. ففى ميدان السياسة الداخلية نرى دول أفريقيا الثورية وقد اتبعت نظما تقارب نظم الديمقراطيات الشعبية الأوربية أما دول أفريقيا المعتدلة، فإنها تأخذ بنظم تشبه الديمقراطيات الغربية الأوربية. أما فى ميدان السياسة الخارجية فإن دول أفريقيا الثورية تأخذ بسياسة عدم الانحياز والعداء للاستعمار. على حين أن دول أفريقيا المعتدلة تتبع سياسة مهادنة للاستعمار وربما الانحياز له فى بعض الحالات.

أما التناقض القائم بين القارية الأفريقية، والإقليمية، فيظهر بوضوح فى شكل سؤال هو:

هل تتحقق الوحدة العربية الشاملة عن طريق إقامة منظمة واحدة؟ أم أنها تتحقق عن طريق قيام منظمات إقليمية جزئية تقوم إلى جانب المنظمة القارية، وتخضع لها، وتنضوى تحت لوائها؟ وإذا قامت تلك المنظمات الإقليمية الجزئية فكيف يتم تنظيم خضوعها للمنظمة القارية؟ وكيف يمكن تفادى الازدواج فى العمل، وما قد ينشأ عنه احتكاك أو اصطدام بين هذه وتلك؟

وإلى أن نصل إلى الإجابة.. فرص الاحتكاك قائمة.. واحتمالات الصدام واردة.. وإذا حدث الاحتكاك أو الصدام، فلن تقف القوى العظمى مكتوفة الأيدى.. فكما قلنا إن أفريقيا غنية جدا.. ومهمة جدا.. بل يقول البعض إن فى يدها مفتاح أزمة الغذاء العالمى..

● ● ولأنها غنية جدا.. ولأنها مريضة جدا.. فللوفاق الدولى تطبيقات على أرضها!!